**جمهورية العراق / بغداد / الجامعة المستنصريَّة / كليَّة الآداب**

**قسم اللغة العربيِّة / الأدب الأندلسي / أُستاذ المادة أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**المرحلة الثَّالثة/ مسائي/.....1436ـ1437هـ /2015ــ 2016م**

**النَّثر الفنِّي موضوعاته وخصائصه / القسم** **الثَّاني**

**ولعل من أبرز خصائص النثر من حيث الشكل والمضمون مايأتي :**

أ ـ **من حيث الشكل :**

ميلها إلى عدم الاستهلال بالحمد والصلاة ، وقدّم جملة من الاحتمالات هي :

1 ـ ربما لأنهم مالوا إلى نوع من التخصص كما حصل لأبي حفص بن برد في فصول الحمد ، وبعض الرسائل الدينية الأخرى .

2 ـ إن الرسائل حذفت مقدماتها للاختصار .

3 ـ إن هذا النهج أميل إلى البساطة ، والبعد عن التعقيد .

4 ـ إنهم في هذا السبيل أرادوا الخروج على التقاليد المشرقية المتّبعة هناك .

5 ـ كثرة احتفالها بجمل الدعاء والاعتراض ، وتنويعها بين الشعر والنثر ، وميلها إلى الاطناب ، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وتضمنها الحوار والقصص ، وأسلوب السخرية والفكاهة ، وكانت الألفاظ المستعملة تعتمد السجع والازدواج والجناس .

ب : **من حيث المضمون :**

مالت الرسائل إلى نزعة الترادف والتكرار ، وكان في مقدمة تلك المعاني : المعتقدات ، والأفكار الإسلامية ، وتناولت مشكلات الحياة السياسية إذ كانت قوية الصلة بالحكام والأمراء ، وصوّرت المجتمع تصويرا دقيقا إلى حدٍّ بعيد ، وجاءت تحفل بقوة العاطفة في الرسائل الدينية والأخوية والوصفية .

أما **الرسائل الديوانية** : فكانت العاطفة فيها ضعيفة ، وكانت الأساليب المعتمدة في التعبير عن هذه المضامين : الخيال بما يتضمنه من تشبيه واستعارة وكناية وأساليب الطباق والمقابلة .

ومن أهم **الفنون النثرية** التي أبدع فيها الأندلسيون في هذا العصر :

**أدب المناظرات :** وهو من الفنون الأدبية التي عرفها الأدب العربي في عهد مبكر فمن أمثلته المناظرة التي أجراها الجاحظ بين صاحب الكلب ، وصاحب الديك في كتابه الحيوان ، وأن له كتابا آخر هو سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف ، ولكن أدباء الأندلس كانوا بذلك أشهر ، وكان هذا اللون لديهم أكثر ؛ ولذلك ذكروا به ، وذكرهم بهم ، حتى نُسب إليهم دون سواهم .

وأشهر أدباء هذا العصر **أبو حفص بن برد** الذي عدّه السيوفي مخترع هذا الفن ، وأول من كتب في هذا الموضوع ، ووجد في مناظراته أنها تدل على سعة خيال الأديب ، وحسن ذوقه في انتقاء الألفاظ ، ونفاذ بصره بمواقع الكلام ، فضلا عن ميله إلى الأسلوب القصصي الذي لم يُعرف في الأدب المشرقي ، ذلك الأسلوب الذي افتُنّ به الأندلسيون ، فعُرف لهم في إطار المحاورات بين الورد والأزاهير ، وممن اشتهر في هذا الفن : **أبو عمر الباجي ، وأبو الوليد** **الحميري في كتابه البديع في وصف الربيع ،** إذ أجرى محاورات كثيرة بين الزهور ،وكذلك **أبو بكر الجزارالسرقسطي الذي ألفّ كتاب بادرة العصر وفائدة المصر ،** وجعله مناظرة بينهوبين خصمه **أبي الحسن البرجي ،**وقد وصل إلينا هذا الكتاب .

ويمكن أن تدخل **رسالة التوابع والزوابع** في باب المناظرات كذلك لوضوح هذا الاسلوب فيها .

**أنموذج من رسالة أبي حفص بن برد بن الأصغر في المناظرة بين السيف والقلم .**

وقد جعلها رسالة إلى الموفق أبي الجيش مجاهد العامري ، وبعد أن يذكر ما تشابه من خصال ، وأنهما سُلّمَان لارتقاء المراتب ، وطريقان لنهج الشرف الرفيع وشفيعان لا يؤخر تشفيعهما انتقل إلى المناظرة بينهما :

فقال القلم : ها ، الله أكبر ! أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك ، ويحير جنانك ، وبديهة تملأ سمعك ، وتضيق ذرعك ، خير الأقوال الحق ، وأحمد السجايا الصدق والفضل من فضله الله عزّ وجلّ في تنزيله مقسماً به لرسوله فقال : " ن والقلم وما يسطرون " القلم / 1 وقال : " اقرأ وربك الأكرم الّذي علّم بالقلم " العلق / 4 ، فجلّ من مقسّم

، وعزّ من مقسم ، فما تراني ، وقد حللت بين جفن الإيمان وناظره ، وجلّت بين قلب الإنسان وخاطره ؟ لقد أخذت الفضل برمته ، وقدت الفخر بأزمته .

فقال السيف : عدنا من ذكر الطبيعة إلى ذكر الشريعة ، ومن وصف الخصلة إلى وصف الملة ، لا أُسرّ ، ولكن أعلن **قيمةُ كل آمرئ بما يُحسن .** إن عاتقاً حمل نجادي لسعيد ، وإن عضداً بات وسادي ، وإن فتى اتخذني دليله لمهدي ، وإن امراً صيّرني رسوله لمفدي ، يشق الدُجى بمصباح ، ويقابل كل باب مفتاح ، أفصحُ والبطل قد خرس وابتسم ، والأجل قد عبس ، أقضي فلا أنصف ، وأمضي فلا أصرف ، أزري بالوفاء ، وأهتك الرداء " .

ومن أمثلة النثر في هذا العصر ما جاء في ديوان ابن خفاجة الأندلسي في صفة متنزه :

" ولما أكب الغمام إكباباً لم نجد معه إغباباً ، واتصل المطر اتصالا ، لم نلف معه انفصالا ، ثم أذن الله تعالى للصحو أن يُطلع صفحته ، وينش صحيفته ، فقشعت الريح السحاب ، كما طوى السجل الكتاب ، وطفقت السماء تخلع جلبابها ، والشمس تحط نقابها ، وتطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلّت ، وقد تحلّت ، ذهبت في لُمة من أخواني نستبق إلى الراحة ركضاً ، ونطوي للتفرج أرضاً ... "

ولن يستطيع الباحث أن يغفل أشهر أعلام هذا العصر ابن زيدون الذي ترك لنا رسائل قليلة إلا أنها مشهورة :

1 : الرِّسالة الجدية .

2 : الرِّسالة الهزلية .

3 : رسالة إلى أُستاذه أبي بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من السجن مستشفعاً به ؛ لإصدار العفو عنه .

4 : رسالة للمظفر بن الأفطس في شفاعة صديق .

5 : ثلاث رسائل في التمهيد للرحيل إلى إشبيلية ، اثنتان للمعتضد بن عبّاد " العباديتين " والثاثة العامرية إلى أبي عامر بن مسلمة بإشبيلية .

**الرسالة الجديّة والهزلية :**

حظيت هاتان الرسالتان بالقسط الوافر من عناية الدارسين والشُراح ، فقد شرح الرسالة الجديّة صلاح الدين الصّفدي " 764 هـ " بكتاب "**تمام المتون إلى شرح رسالة ابن زيدون" .**

وأما الرسالة الهزلية فقد شرحها ابن نباتة المصري " 768 هـ " في كتاب أسماه **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون"** على لسان ولَّادة إلى ابن عبدوس ، وتلتقي الرِّسالتان في جملة خصائص ومميزات من حيث الأسلوب :

1 :فيهما إطالة وإطناب والرسالة الجدية أقلّ إسهاباً وأكثر اتزاناً وتعقلا من الهزلية.

2 : فيهما صناعة لفظية معتمدة على السجع وازدواج العبارة ، ولقد بالغ في صنعته مما جعل شوقي ضيف يرى أن ذوقه في نثره كان قريباً من ذوق أصحاب التصنع في المشرق .

3 : وتشترك الرسالتان أيضاً في قوة الخيال وكونه عنصراً مهماً في التعبير والتصوير.

4 : وتشترك الرسالتان في الإكثار من استعمال الأمثال والحكم وذكر الأحداث التاريخية ، وذكر وقائع القرآن الكريم وحوادث الإسلام الحنيف .

وتمتاز الرسالة الجديّة بقوة العاطفة وعمقها ، إذ فيها تصوير حالة الشاعر ، فقد كان يرزح تحت وطأة السجن وينوء بآلامه وشماتة الأعداء به ، وقد كتبها في السجن ووجها إلى الأمير أبي الحزم بن جهور .

إن ابن زيدون في أسلوبه هذا متأثر بطريقة ابن العميد " 360 هـ " ومدرسته التي تعتمد السجع والازدواج منهجا وهو متأثر برسالة التربيع والتدوير للجاحظ في رسالته الهزلية .

**من رسالة ابن زيدون الجديّة** يقول :

(( يامولاي حدّ العزم ، واري زند الأمل ، ثابت عهد النعمة ، إن سلبتني أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى إيناسك ، , وأظمأتني إلى برود إسعافك ، ونفضت بي كف حياطتك ، وغضضت عني طرف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ثنائي عليك ، وأحسّ الجماد باستحمادي إليك ، فلا غرو قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفي به ... )).

**ويقول في رسالته الهزلية :**

(( أما بعد : أيُّها المصاب بعقله ، المورط بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الأعمى في شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، فإن العجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنّك راسلتني مستهديا من صلتي ، ما صغرت منه أيدي أمثالك متصديا منى خلتي لما قُرعت دونه صنوف أشكالك ...))

**شعر ابن زيدون، أبي الوليد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومي، حياته :** تنقسم حياة ابن زيدوه أبي الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب المخزومـي ، إلى حقبتين هامتـين .الحقبة الأولى وتبدأ بولادته سنة 394 هـ / 1003م وتنتهــي بقـيام دولـة بني جهــور سنــة 422 هـ /1031م أما الحقبة الثانيـة فهـي التي عاشها في كنف بني جهور و بني عبـاد .  
ولد في قرطبة ، زمن الدولة العامـرية ، من قبيلة بني مخزوم القرشية التي جـاء بعـض رجالاتها مع الفتح الإسلامي ، فساندوا الحكم الأموي .كان والده قاضياً فقيها على المذهب المالــكي (( واسـع الثقافة ، غزير العلم ، مشهوراً بالبلاغة ، معروفاً بمكارم الأخلاق ، وكـان على حظ وافرمن الثراء أتاح له ـ مع علمه وخلقه و فصاحته ـ أن يكون ذا شأن في بـلده ، وكان معدودا في علّية القوم .)) و كلّ هذا انعكس على طفولة ابن زيدون ، و إن كان قد تلقى حظاً وافراً مـن علوم عصره على يد علماء و فقهاء قرطبة. فـدرس اللّغة ، و الأدب ، والشّعـر ، والتّاريـخ ، و السّير… فساعده كلّ ذلك على ذيوع صيته و شهرته . حيث قرض الشّعر ، و نبغ فيه ، و هو في الـعشرين من عمره .  
 **بيئته السِّياسيَّة :**

لاشك أن ابن زيدون ، عـايش فترة عصيبة في السياسة الأندلسية .إذ انتقـل الحكـم من الأمويين إلى ملـوك الطوائف ، فمزّق أيّ ممزق بين زعماء و قـادة ، كلّ استقل بإقليم جعل منه دولة و جيشاً ، و حدّد حدوداً ، و نظّم نظـاماً و من ذلك :   
ـ الدّولة الزّيريـة في غرنـاطـة ( 403هـ / 483هـ ) ـ (1011 م / 1089م.  
ـ الدولة الحمودية في قرطبة ومالقة (407 هـ / 450 هـ ) ـ (1015 م / 1057م   
ـ الدولة الـهودية في سرقسطـة ( 410 هـ / 536 هـ ) ـ ( 1018 م / 1140م.  
ـ الدولة العامريـة في بلنسيــة ( 412 هـ / 478 هـ ) ـ ( 1020 م / 1085م.  
ـ الدولة العباديـة في إشبيلـيـة ( 414 هـ / 484 هـ ) ـ ( 1022 م / 1091م.  
ـ دولـة بني الأفطس في بطليوس ( 421 هـ / 487هـ ) ـ ( 1029 م / 1094م.  
ـ الدولـة الجهورية في قرطبــة ( 423 هـ / 461 هـ ) ـ ( 1031 م / 1069م.  
ـ دولـة ذي النون في طليطلـة ( 427 هـ / 487 هـ ) ـ ( 1035 م / 1094م.  
  
و في ظرف عـقدين من الـزّمن ، كانت الأندلس قـد جزّئت ، دويلات متنـاحرة . يتربص بها عدو مشترك ، بل يفرض على بعضها الجزية و تعطيهـا في ذلّ وصغار …و قد واكب ابن زيدون عملية الجزية ، إذ كان عمره ثلاث عشْرة سنة ، مع قيام الدولة الزيريـة ، و أصبـح عمره ثلاثاً و ثلاثين سنة ، مع قيام دولة ذي النّون ، في طليطلــة . و إن كان يهمنا من هذه الدول، دولتـين : الدّولة العبّادية ، والدّولة الجهورية. إذ كان عمر ابن زيدون مع قيام الدولة العبادية عشرين سنة، ومع قيـام الدّولـة الجهورية ، كان تسعاً وعشرين سنة .فبنو جهور : عرب حكموا قرطبة . زعيمهم : جهور بن محمـد ( ت 435هـ / 1043 م ) و هو من وزراء بني عامر ، استحوذ على قرطبة ، بعد انهيار الدولة الأمويـة .  
أمّا بنو عباد ، فهم أيضاً عرب ، أسّس دولتهم : أبو القاسم محمد بن عبّاد . الذي كان قاضياً بإشبيلية ، و استمرّت إلى عهد المعتمد بن عبّاد ، حيث قضى عليها المرابطون في عهد السلطان أبي يعقوب يوسف بن تاشفين .و في خضم هذا الشّتات ، و التّمزيق ، و الصّراعات ، و الثّورات ، و الفتن ، و الانقلابات السياسية … التي أعـقبت وفاة الحكم المستنصر … وما تلا ذلك من صراع على السلطة بين دويلة وأخرى ، و فرق إثنية كالعرب ، و غير العرب ، و ا لمسلمين و غير المسلمين ، و البرابرة ، و الصقالبة و المولديـن وغير المولديـن …  
الشيء الذي جعل ابن زيدون ينغمس في عمق التيار ، فيجرفه بعيداً ، ليصبح طرفاً في الصراع . بلْ له الفضل في الثّورة على الأمويين ، وقد أفلّ نجمهم . و معاضدة الثائرين ، من بني جهور ، و بني عباد ، و قد شعّ بريـقهم ، و خفـقتْ بيـارقهم . و لكنّ دروب السياسة وعرة ، و غير آمنة . فلـقد قادت ابن زيدون إلى الوزارة في عهد أبي الحزم بن جهور ، جزاء ما قدمه للدولة الفتية . و لكن الأحداث و الوشاة ، ساقت ابن زيدون إلى غياهب السّجن ، بتهمة التــآمر على النظـام … وقـدْ تمـكن من الـفرار ، و هام على وجهه ، يختـفي هنا و هناك.إلى أن مات أبو الـحزم ، وخلفه ابنه الوليد ، فظفر عنده بأعلى مكانة . إلا أن أيام السعد لم تدم طويلاً .إذ أحسّ أنّ الوشاة ـ ومـن جديد ـ قد أفسدوا ما كان بينه و بين الوليد . ففرّ إلى ا لمعتـضد بإشبيلية ، ولازمه غير أن الوشــاة أعادوا الكرّة ـ حسداً ـ ولكنّهم لم يـفلحوا . و لما مات المعتضد ، أعادوا أساليـب الوشايـة ـ حـقداً وضغينة ـ لما أصبح يتمتع به من حظوة عند ا لمعتمد بن عباد . غير أن هذا الأخـير لم يعبـأ بـهم ، بل وقرعهم أشد تـقريع .و مكث ابن زيدون في رفـقة المعتمد ، ونـار الحسد متأججـة حوله حـتى أدركتـه الوفاة ، وهو في مهمة في إشبيلية ، لتهدئـة الأوضاع هناك . فـقام بـها أحسن قيام ، رغم المرض ، و الحمّى … و هو يدرك أن حساده ، هم الذين أوزعوا للمعتمد إرسالـه إلى إشبيلية، قصد إبعاده . فلم يرحموا شيخوخته ، و مرضه ، ولم يكن ليخالف للمعتمـد طلبـا . فاشتـدت به الحـمـى ، وأنهكه السّقم ، فمات في الخامس عشرة من رجب سنـة ثلاث و ستين و أربعمائة هجريـة . فحـزن لموتـه أهل إشبيلية ، و دفن فيها . ولما وصل نعيه إلى قرطبة ، عمّها حـزن شـديد... ورغم ذلك : (( سوف يـظل ابن زيدون من قبل ، ومن بعد ، مـن الجديد الذي لا يبلى ، و الـغصن الذي لا يذبـل .))   
**بيئتـه الاجـتـماعيـة :**إنَّ المجتمع الأندلسي على عهد ابن زيدون ، كان خليطا من الأجناس ، و الإثنيات التي تشكـل فسيفساء غير متجانسة . رغم كل المحاولات اليائسة في جـعل المجتمع الأندلسي ، ينصهر في بوتـقة واحدة .فمنهم العرب الوافدون مع موسى بن نصير ، و ما تلاه من وفـود الفتح القـادمة مــن المشرق العربي . و كانت لهم سلطة الحكم ، وحظوة الاقتصاد و ا لمال . و هناك الأسالـمة ، و هم الأسبان الذين أسلموا ، إمّا عن اقتناع ، أو مدارات للـمسلمين ، حتى يحافظوا على مصالحهم . ثم هناك المولدون ، و هم من ولدوا لأباء من الأسبان ، وكانوا جميعاً يشتغلون بالزّراعة ، و التّجارة ، و الصّناعة. أمّا العرب أو غير العرب ، فكانت تستقطبهم مهنة الطب ، و الصيدلة ، والمعاملات المالية . ثم هناك الصقالبة ، و هم أجناس غير إسبانية كالإطاليين والجرمانيين ، و الفرنسيين ، و غيرهـم من جزر ا لبحر الأبيض المتوسط . وكانت لهم مراكز هامـة في المجتمع و السياسة و الجيش … و كان لهم دور بارز في تدبير ا لمؤامرات و الانقلابات ، ثم هناك الأمازيغ ، من شمال إفريقيا الذين دخلوا الأندلس مع الفاتحين العرب ، و كانوا يشكلـون الأكثرية من ا لمسلمين .و لعلّ هذا التجمع من الأجناس المختلفة و ما شاع بينهم من زواج و اختلاط أفرز عدة معطيات : كاللَّهو، والمجون ، و الغناء و الاهتمام بالفتنة ، و التأنق ، والجمال ، والاهتمام بالعمارة ، والصناعة ، والزراعة و كثرة الجواري و القيان ، و كثرة الشّراب ، و تحرر المرأة ، و التّسامح ، و البعد عن التّعصب ، و الاعتناء بالنّظافة ، و الأزيـاء ، و الموسيقـى … 